النجاة بالحِجاج
في أخبار الأدب القديم

د . محمد بن علي بن محمد السنيدي
أستاذ الأدب والنقد المشارك في قسم اللغة العربية وآدابها بكلية اللغات والعلوم
الإنسانية بجامعة القصيم

النجاة بالحجاج في أخبار الأدب القديم

د . محمد بن عَلي بن محمد السنيدي
أستاذ الأدب والنقد المشارك في قسم اللغة العربية وآدابها بكلية اللغات والعلوم الإنسانية بجامعة القصيم

تاريخ تقديم البحث: ٢٧/ ٥/ ١٤٤٥هـ تاريخ قبول البحث: ١٨/ ٧/ ١٤٤٥هـ

ملخص الدراسة:

يهدف البحث إلى دراسة أخبارٍ في الأدب القديم، فيها نجاة لشخصية بحجة قولية، ويهدف أيضا إلى الكشف عن طرائق هذه الحجج. وافترض البحث أن هذه الأخبار لها مصنفات تحتويها، تدل عليها عناوينها، ككتاب (العفو والاعتذار) للرَقّام البصري (حيّ أول القرن الرابع هـ)، و(الفَرَج بعد الشِدّة) للتَنُوخي (ت٣٨٤هـ)، و(لطف التدبير) للخطيب الإسكافي (ت٤٢١هـ)، و(أخبار الأذكياء) لابن الجوزي (ت٥٩٧هـ)، وأنّ لها فصولًا في بعض الكتب، تهتم بتلطّف القول وبالعفو وبالتخلّص من العقاب، وهي (عيون الأخبار) لابن قتيبة (ت٢٧٦هـ)، و(العقد الفريد) لابن عبدربه (ت٣٢٨هـ)، و(نهاية الأرب في فنون الأدب) للنويري (ت٧٣٢هـ)، وافترض البحث أن الحُجَج في هذه الأخبار ستكون على منوال ما زامنها من حُجج في مؤلفات المنطق والجدل والبلاغة. وقد استقريتُ الأخبار في هذه المصادر، فوجدتُ فيها أمثلة على: الاعتراضات الجدلية، وعلى الإيهامات المغالطية، وعلى المُقْنِعات الخطابية، وعلى التخييلات الشعرية، ولاحظتُ أن بعض الحجج توافق تقنيات شاييم بِرِلْمان صاحب كتاب (الإمبراطورية الخطابية) الذي جدّد البلاغة من جذورها الأرسطية؛ لذلك نهجتُ بالحجاج على نهج التصور البلاغي المتأصّل من المنطق، وقسمتُ البحث إلى انقيادات ذهنية نبّه عليها الفارابي (ت٣٣٩هـ)، منها: الجدل، والمغالطة، والخطابة، والشعر، ثم إلى فروع تذكرها العلوم العقلية والبلاغية، واجتهدتُ في ذكر ما يقابلها من التقنيات الحجاجية في نظرية بِرِلْمان.

وتوصلتُ إلى أن الخبر في الأدب العربي حقيقٌ أنه موسوعة معارف وآداب، وأن الحجج التي وَعَتْها علومُ ذاك الزمان لها نصيبٌ من حوارات الأخبار. ويوصي البحث بالاهتمام بالخصائص الحجاجية للأجناس القولية وأن تقارب الأقوال الأدبية على وفقها.

الكلمات المفتاحية: الاعتراض، الإيهام، الإقناع، التخييل، التقنيات الحجاجية. .

Salvation through Argumentation in the Narratives of Ancient Literature

Dr. Mohammad ibn Ali Alsonaidi

Associate Professor in Literature and Criticism At the College of Languages and Humanities, Qassim University

Abstract:

The research aims to study narratives in ancient literature featuring the salvation of a character based on verbal argumentation. Additionally, it seeks to uncover the methods employed in these arguments. The assumption underlying the investigation is that these narratives are categorized within specific works, such as (Al-'Afu wa al-I'tizar) by Al-Raqqam Al-Basri (Hayyun Awal Al Qaran Al Rabie), (Al-Faraj Ba'da al-Shiddah) by Al-Tanukhi (d. 384 CE), (Lutf al-Tadbir) by Al-Khatib Al-Iskafi (421 CE), and (Akhbar al-Azkiya) by Ibn al-Jawzi (597 CE). It is presumed that these narratives have chapters within certain books dedicated to gentle discourse, forgiveness, and the avoidance of punishment. Examples include (Uyun al-Akhbar) by Ibn Qutaybah (276 CE), (Al-'Uqd al-Farid) by Ibn Abo Rabbih (328 CE), and (Nihayat al-Arab fi Funun al-Adab) by Al-Nuwayri (732 CE). The research posits that the arguments in these narratives follow the type of contemporaneous arguments found in logical, dialectical, and rhetorical compositions. Through a comprehensive examination of these sources, instances of dialectical objections, fallacious implications, persuasive discourses, and poetic imaginations were identified. The research observed that some arguments align with the techniques delineated by Chaïm Perelman in his work "The New Rhetoric: A Treatise on Argumentation," which revitalized rhetoric from its Aristotelian roots. Accordingly, the research adopted an argumentative approach grounded in rhetorical conceptualization derived from logic. The study categorizes the research into mental inclinations highlighted by Al-Farabi (d. 339 CE), encompassing dialectics, sophistic, rhetoric, and poetics. It then delves into branches referenced by intellectual and rhetorical sciences, diligently highlighting corresponding argumentative techniques in Perelman's theory. The findings indicate that narrative in Arabic literature is indeed an encyclopedic repository of knowledge and manners, with the arguments endorsed by the sciences of that era contributing to the discourse within these narratives. The research recommends focusing on the argumentative characteristics of literary genres and encouraging literary expressions to align with them. adopted an argumentative approach grounded in rhetorical conceptualization derived from logic.

Keywords: Objection, Fallacy, Persuasion, Imagination, Argumentative Techniques.

المقدمة

يجيء في أخبار الأوائل أن يُتَّهَم أحدُهم بجناية؛ وتُوقع عليه عقوبة، لولا ما جاد به هو أو شفيعه بقول يردّ العقوبة إلى براءة أو صفح، وقد دلّني على هذه الأخبار عناوين كتبٍ وفصولها، وهي:

-في كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة (ت٢٧٦هـ)، في: "كتاب السلطان" عنوانٌ، هو: "التلطّفُ في مسئلة [كذا] السلطان"[١].

-في كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه (ت٣٢٨هـ)، من إحدى جواهره: "المرجانة في مخاطبة الملوك"، فيها أخبار بعنوان: "الاستعطاف والاعتراف"[٢]، وأخبار بعنوان: "حسن التخلّص من السلطان"[٣]، وأخبار بعنوان "فضيلة العفو والترغيب فيه"[٤].

-في كتاب العفو والاعتذار للرَّقّام البصري (حيّ أول القرن الرابع هـ) بابٌ عنوانه: "تلطّف الجناة في طلب العفو"[٥].

-في كتاب الفرج بعد الشدة للتَّنُوخي (ت٣٨٤هـ)، بابٌ عنوانه: "من استعطفَ غضبَ السلطانِ بصادقِ لفظ، واستوقفَ مكروهًا بمُوْقِظ بيانٍ أو وعظ"[٦].

---

[١] عيون الأخبار، ٩٨/١.

[٢] العقد الفريد، ١٤٧/٢.

[٣] السابق، ١٦٨/٢.

[٤] السابق، ١٨٧/٢.

[٥] العفو والاعتذار، ١٧٣/١.

[٦] الفرج بعد الشدة، ٣١١/١.

-في كتاب لطف التدبير للخطيب الإسكافي (ت٤٢١هـ)، بابٌ عنوانه: "في دفْعِ مكروهٍ بِقَوْل"[١].

-في كتاب أخبار الأذكياء لابن الجوزي (ت٥٩٧هـ) بابٌ عنوانه: "في ذكر من وقع في آفة فتخلّص منها بالحيلة"[٢]، ويليه بابٌ عنوانه: "في ذكر من استعمل بذكائه المعاريض"[٣].

-في كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري (ت٧٣٢هـ)، أخبار بعنوان: "ذكر ما قيل في العفو"[٤].

ولو كانت العناوين من إدراج النُّسّاخ أو المحقِّقين ما غيّر هذا من قيمة الأخبار شيئًا، فهي شهادة ممّن وعى الكتاب وأسهم في نشره، ومعدودٌ عملهم من النصوص الموازية المنبهة على مضمون اتحاد الأخبار في الموضوع، وجلّهم التزموا تمييز المدرج من غيره بحاصرتي الإدراج.

وفكرة البحث وعنوانه مأخوذان من نصوص تلك المصادر الموازية لأخبار النجاة؛ كقول ابن قتيبة في الغرض من أخبار كتابه: "تَسْتَنْجِحُ بها حاجتَك إذا سألت، وتَتَلَطَّف في القول إن شفعت، وتخرجُ من اللوم بأحسن العذر إذا اعتذرت"[٥]، وقول الرقّام في صدر أحد أخباره: "ومن الاحتيال في طلب العفو

---

[١] لطف التدبير، ص١١٧.

[٢] أخبار الأذكياء، ص١٥٦.

[٣] السابق، ص١٦٨.

[٤] نهاية الأرب، ٦/٥٧.

[٥] عيون الأخبار، ١/ك.

رجاءً للنجاة من القتل"[١]، وقول التنوخي في مقدمته: "وجدتُ مِن أقوى ما يَفْزَعُ إليه مَن أناخ الدهر بمكروهه عليه قراءةَ الأخبار، التي تُنبِي عن تفضّل الله عز وجل على مَن حَصَلَ قَبْلَه في مُحَصَّلِه، ونزل به مثل بلائه ومُعضِله، بما أتاحه الله تعالى له مِن صنعٍ أمسك به الأرماق، ومعونةٍ حَلّ بها من الخَنَاق، ولفظٍ غريبٍ نجّاه، وفَرَجٍ عجيبٍ أنقذه وتلافاه"[٢]، وقول الإسكافي في مقدمته: "في الناس مَن يؤيده اللهُ مِن صواب الرأي؛ بما يُغنيه عن استمداد، ويوفّقه حتى لا يحتاج في قِراع الخطوب إلى استعداد"[٣].

فاخترتُ الأخبار التي أرشد وُعاتُها ونَقَلَتُها إلى موضوعاتها الحجاجية، كالاستعطاف والتخلص بالحيلة وسؤال العفو ودفع المكروه؛ وكانوا شهودًا على أن هذه الأخبار ميدان اختصام، ومقام احتجاج.

وكل الأخبار التي في البحث من تلك المصادر، وعند تكرار الخبر بين المصادر أكتفي بأقدمها، ولم أتتبع ذكرها في مصادر أخرى، والطويل من الأخبار أقتبس منه ما يُهِم البحث، وأوجز ما بين اقتباساته، وأحيل إلى مصدره في أول ذكره، حتى لا تكثر الحواشي.

وتُقارَب أخبار النجاة بنظريات الحِجاج الذي تأصّل من علم المنطق، وأثّر فيه المؤلفون في الخطابة والشعر كالفارابي، وابن سينا (ت٤٢٨هـ)، وحازم (ت٦٨٤هـ)، وظهر في البلاغة الجديدة عند شاييم بِرِلْمان (C.

---

[١] العفو والاعتذار، ٢٢٣/١.

[٢] الفرج بعد الشدة، ٥/١.

[٣] لطف التدبير، ص١.

Perelman)، وآثرتُ منطلقات الأوائل على منطلقات بِرِلْمان؛ لأنها مزامنة للنصوص المدروسة، ومدركة في الثقافة التي استوعبت هذه الأخبار، وقد كانت منطلقات الأوائل من أجناس القول: البرهان والجدل والخطابة والمغالطة والشعر، التي ينفرد كل واحد منها بانقياد ذهني[1]، وامتازت أواخرها بأن ميدانها المخاطبات، وأما أولها –وهو البرهان– فمجاله الأساس: العلوم، ولا يُظنّ أن الخطابة والشعر وما معهما قوالب أنواعية للقول لا صلة لها بالحجاج، بل هي انقيادات ذهنية، تتباين في الحجج، وسيفيد البحث من تقنيات بِرِلْمان ضمن هذه الأنواع.

وإيراد هذه الأخبار والاكتفاء باستخراج حججها لا يعني تأييد ما فيها؛ مما قد يظهر من إخلالٍ بحقوق المتهم، أو اختلافٍ عما في الشريعة؛ فالأخبار لم تكن من محاضر قضاة ذلك الزمان؛ بل هي من رواية نديم مسامر، أو من تدوين متأدّب متخيّر للكلام البليغ، ففيها ما زاد وما نقص عما في الواقع؛ إن كان الخبر واقعًا.

وليس البحث في صحة الأخبار، ولا في تحقيق نسبة أقوالها وأفعالها؛ فالفحصُ في إسنادها غير متوخّى، ورميُ الخلفاء والأمراء بالجور تعصّبًا من الراوي أو المؤلف غير مستبعد، وتبديلُ الأسماء المتخاصمة بين رواية وأخرى ملحوظ، منها أن السيد الذي عفا عن خادمه المسيء إليه قد رُوي أنه الحسن بن علي

---

[1] الألفاظ المستعملة في المنطق، ص٩٦-١٠٠.

(ت٥٠هـ)[١] (رضي الله عنهما)، وأنه المأمون(ت٢١٨هـ)[٢]، وفي كلا الخبرين أهرق الخادم الماء على سيده، فأغضبه، وأراد عقابه، فذكّره الخادم بآية: {وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ} [آل عمران: ١٣٤] ؛ فسكن غضب السيد، وعفا عن خادمه، وأعتقه.

وقصارى البحث هو الكشف عن طرائق الحجاج في مدونة عربية مختارة، ومرجعياته في نبذ التهمة وإدارة التخاصم، والوصول إلى ما بين الثقافة والأعراف والأدب من صلة.

[١] الفرج بعد الشدة، ١/٣٧٤.

[٢] العقد الفريد، ٢/١٨٧.

المبحث الأول: النجاة بالجدل

يُعرّف الجدل بأنه: "دفْع المرءِ خصمه عن إفساد قوله بحجةٍ أو شبهة"[١]، وله متناظران، أحدهما يدّعي، والآخر يعترض، ولا يلزم في الجدل أن يكثر تردّد الكلام بينهما، فلنا أن نحكم على قول بعينه أنه جدلي؛ إذا سلك فيه قائله مسالك الاعتراض.

ومسالك الاعتراض، أشهرها: المنع والمعارضة والنقض[٢]، فالمنع: منع الحكم لعدم الدليل، والنقض: رفض الدليل، والمعارضة: إعادة الاستدلال بالدليل، أو بمثيله، أو بغيره استدلالا يخالف الحكم[٣]؛ لأن للمعترض أن يقول بمنع الحكم إذ لا دليل عليه، وله -إن كان للحكم دليل- أن ينقض الدليل نفسه، أو يُعارض هذا الدليل بدليل آخر، والذي يظهر من تقنيات بِرِلْمان أنه يوافق أحد هذه المسالك هو حجة التعارض[٤]؛ فهي تشمل مسلك المعارضة، ولهذه المسالك من أخبار النجاة أمثلة.

---

[١] التعريفات، ص٥١.

[٢] التعريفات، ص١٥٠، رسالة الآداب، ص٨٦، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص٧٩-٨٣، ومن الدراسات الحجاجية التي قاربت قولًا أدبيًّا، واستخرجت منه مسالك الاعتراض هذه الدراسة: "الآليات الحجاجية في نقائض جرير والفرزدق من خلال نقيضتيهما (سم ناقع) و(إن الذي سمك السماء)"، ص٤٠٣-٤٣١.

[٣] التعريفات، ص١٥٠.

[٤] الإمبراطورية الخطابية، ص١٣٠.

١ . المنع.

أ . ومنه المنعُ بالبراءة في خبر عمرو بن معاوية بن عمرو الأموي[١]، رُوي أنه أدرك ثورة العباسيين وظهور دولتهم؛ فاستتر خشية أن يصير إلى ما صار إليه بنو أمية، وقنط من كتمان حاله، وعلم أنّ تخفّيه لن يدوم، فأتى سليمانَ بن علي (ت١٤٢هـ) عمَّ السفّاح (ت١٣٦هـ)، واستأمنه، فأمّنه، وقال: "يا بن أخي، يحقن اللهُ دمك، ويستر حُرَمَك، ويُسَلِّم مالَك إن شاء الله؛ ولو أمكنني ذلك في جميع قومك لفعلت"، ثم كتب سليمان إلى الخليفة أبي العباس السفاح: "أما بعد. يا أمير المؤمنين، فإنا إنما حاربنا بني أمية على عقوقهم، ولم نحاربهم على أرحامهم، وقد دفّتْ [أقبلتْ] إليّ منهم دافّة لم يُشهروا سلاحا، ولم يُكثّروا جمعا، وقد أحسن الله إليك؛ فأحسنْ، فإن رأى أميرُ المؤمنين أن يكتب لهم أمانا، ويأمر بإنفاذه إليّ، فليفعل". فلبّى السفاح طلبه، وأرسل "كتابا منشورا، وأنفذه إلى سليمان بن علي في كل من لجأ إليه من بني أمية؛ فكان يسميه أبو مسلم [الخراساني]: كهف الأُبَّاق".

إن استتار عمرو بن معاوية، وعده من "الأُبّاق" يدل على أنه محكوم عليه بالقتل، لكن سليمان منع هذا الحكم عليه وعلى تلك (الدافّة) من بني أمية؛ لعدم الدليل على عقوقهم (آل محمد) بحسب دعوة بني العباس، فلا عقوق من الذين "لم يُشهروا سلاحا، ولم يكثّروا جمعًا"، والقصر في قوله: "إنما حاربنا بني أمية على عقوقهم" يمنع من القول بأن (أموية النسب) دليل على العقوق، وسليمان لم يخص اللاجئ إليه بطلب الأمان، بل عممه على نظرائه من قومه.

---

[١] العقد الفريد، ٢/١٥١-١٥٢.

ب . ومما يُمنع به الحكم: أن يدّعي المتهم الجنون؛ فلا يكون أهلا لأن يُؤاخذ بما قال، ولا يكون قوله دليلا في الحكم عليه، فهذا الادّعاء يمنع مقدمة الدليل الصغرى، وهي حمل التهمة على المدّعي، وله أخبار متوالية للحَجّاج بن يوسف (ت٩٥هـ) مع رعيته، أوردها ابن الجوزي، منها أنه: "قال لغلام له: تعالَ نتنكرْ ونَنْظُرْ ما لنا عند الناس. فتنكروا، وخرجا، فمرا على المطلب غلام أبي لهب، فقالا: يا هذا، أيُّ شيء خبرُ الحجّاج؟ قال: على الحجّاج لعنة الله! قالا: فمتى يخرج؟ قال: أخرج اللهُ روحه من بين جَنْبَيْهِ، ما يدريني. قال: أتعرفني؟ قال: لا. قال: أنا الحجّاج بن يوسف. قال المطلب: أتعرفني أنت؟ قال: لا. قال أنا المطلب غلام أبي لهب مصروعٌ؛ أُصرعُ في كلِّ شهرٍ ثلاثةَ أيام، أولها اليوم. فتركه، ومضى"[1]، والظاهر من هذا الخبر أن راويه لم يعِ أن: (المطلب غلام أبي لهب) تعريفٌ ادّعاه الغلام؛ للدلالة على جنونه، الذي من علاماته الهذيان في الأخبار والأعلام، فمن المشهور أن المطلب أخٌ لهاشم[2] جد أبي لهب، فالتقط الغلام في خبر الحجّاج أعلامًا بعُدتْ زمنًا، وتجاورت فيما مضى.

وقوله للحجّاج: "أتعرفني أنت؟" تمهيد لحجة العالم على الجاهل الذي ليس له أن يُنكر ما يجهل، وتوقيته للجنون بأنه: "في كل شهر ثلاثة أيام، أولها اليوم" حتى لا يُحتج عليه بشهادة أحد على تعقّله، فالشاهد قد تكون شهادته على أيام مختلفة عن أيام الجنون القليلة.

---

(١) أخبار الأذكياء، ١٦٣-١٦٤.

(٢) السيرة النبوية، ١/١٣٨.

ورُوي أن الحجّاج: "انفرد يومًا من عسكره، فمر ببستاني، يسْقِي ضيعته، فقال: كيف حالكم مع الحجّاج؟ فقال: لعنه الله! المبيد المبير الحقود، عجّل الله الانتقام منه. فقال له: أتعرفني؟ قال: لا. قال: أنا الحجّاج. فرأى أن دمه قد طاح، فرفع عصا، كانت معه، فقال: أتعرفني؟ قال: لا. قال: أنا أبو ثور المجنون، وهذا يوم صَرَعي. وأزبد، وأرغى، وهاج، وأراد أن يضرب رأسه بالعصا، فضَحِك منه، وانصرف"[1]، وتوالي الأوصاف: "المبيد، المبير، الحقود" يمنع معنى غير مراد؛ فقد يُقال إنه: "مبيد" للشر، ويستأصل الفساد، فهو مُصْلح، فجاء الوصف بأنه: "مبير"، أي مفسد، ليمنع هذا الاستدراك، وقد يُقال: إنه "مبيد مبير"؛ لعصيان الناس له، وتمردهم على حكمه، وخوضهم في الفتن، فيرد هذا التعليل بأنه يفعل ما يفعل لا عن اضطرار أو ردع أو لمجازاة السيئة بمثلها، بل يفعله؛ لأنه "حقود".

والمجنون لا يؤاخذ بقوله، فكيف يُصدّق ادّعاؤه؛ لهذا استعان بعَلَمٍ سابق، وهو: "أبو ثور المجنون"، والكنية واللقب شهرة، والشهرة حجة، واستعان معها بفعلٍ حاضر: (الإزباد والإرغاء والهيجان وضرب الرأس بالعصا)؛ فعضد العَلَم والفعل الادّعاء.

٢ . المعارضة.

من أخبار النجاة أن يُذكر فيها دليل العقاب؛ فيَرُدّ المتوعَّدُ به بدليل يعارضه.

---

[1] أخبار الأذكياء، ص١٦٤.

أ . وقد تكون المعارضة بحجة العقاب نفسه، وتُسمّى المعارضة بالقلب، ومنه خبر كسرى والمغني ليوشت[١]، ذلك أن كسرى كان يتعاقب على إطرابه مغنيان، هما: ليوشت، وتلميذه فهلوذ، فقَتَلَ أولُهما الآخرَ؛ فحبسه كسرى طويلا، ثم أراد قتْلَه دوسًا بأرجل الفيلة، وقال له: "كنتُ أستريحُ منه إليك، ومنك إليه، فأَذْهَبَ شطْرَ تمتّعي حسدُك ونغلُ صدرك!" فرد ليوشت: "أيّها الملك! إذا قتلتُ أنا شطرَ طربِك، وأبطلتُه، وقتلتَ أنت شطرَه الآخر، وأبطلته، أليس تكون جنايتُك على طربكَ كجنايتي عليه؟!" فتركه كسرى، وقال: "دعوه، ما دلّه على هذا الكلام إلا ما جُعل له من طول المدّة".

فالحجة لقتل ليوشت: (إذهاب شطر متعة كسرى)، فاستعمل ليوشت الحجة نفسها، وعارض بها قتله؛ لأن في قتله: (إذهاب لشطر متعة كسرى)، وتسمى هذه المعارضة: معارضة بالقلب، أي قلب الدليل على صاحبه؛ فبدلا من أن يكون الدليل له صار دليلا عليه[٢].

ولِبِرِلْمان عناية بهذه الحجة، وهي المسماة بحجة التعارض والتناقض، واهتم بنوع منها سماه: "التآكل الذاتي"، وهي الحجة التي تبطل نفسها بنفسها[٣].

وصدّر ابن قتيبة هذا الخبر على أخبار "التلطف في مسئلة السلطان" مع أنه من أخبار العجم؛ ويظهر أن التصدير لغرابة الحجة، ولم يظهر لها نظير سوى معارضة الشعراء الدليل الذي أسخط الحكّام عليهم بدليل يرضيهم، والدليلان

---

[١] عيون الأخبار: ٩٨/١.

[٢] التعريفات، ص١٥٠.

[٣] الإمبراطورية الخطابية، ص١٣٤-١٣٧.

شعران، فالشعر المتهم به هجاء للحاكم أو مدح لمنافسه، والشعر الذي يُنجيه مدحة له، وستأتي مناقشته واستخلاصه في النجاة بالشعر.

٣. النقض.

وقد يُرَدُّ الحكمُ بنقض دليله، كما في نقضِ عمرِو بن تميم حجةَ سابور ذي الأكتاف (ت ٢٣٣ق.هـ) في قتل العرب[١]، الذي أكثر من غزو العرب، وقتلهم، فعزا ديار تميم، فلقي عمرو بن تميم وحده، وقد عُمّر إلى المئة والعشرين، وتركه قومه بأمره معلّقا في زنبيل في شجرة، حتى لا تفترسه السِّباع، ومعه زاد، فلما وصل سابور أنزله، وسأله عن اسمه وحاله وبُغيته، فأجاب، وذكر أنه أراد سؤاله عن فِعله بالعرب، فقال سابور: "لأنه بلغني أنه يخرج منكم رجل، يكون زوال ملكنا على يده. فقال له عمرو: والله لئن كنتَ على يقين من ذلك، وكان ما أُخبرتَ به حقا؛ إنه لينبغي لك أن تعلم أنه لو لم يبق من العرب إلا رجل واحد، لما قدرتَ على ذلك الواحد، حتى ينتهي الله فيه إلى ما تتخوّف وقوعه، ولئن كان هذا شيء تظنه ظنا؛ فما ينبغي لك أن تقتل على الظنّ قومًا بَرَاء، لا ذنبَ لهم إليك. فقال سابور: ويحكم! أين كنتم عن هذا الرأي قبل اليوم؟! فوالله لو علمتُ به ما غزوتكم. ثم انصرف بجيشه عنهم، ولم يعد إلى غزوهم مرة أخرى".

وقد أدلى عمرو بحجتين من يقين وظن بحسب اعتقاد سابور، فإنه إن كان موقنًا بخبر الرجل العربي الذي يزيل مُلك فارس فلن يصل إليه؛ لأن المستقبل آتٍ لا يُرَدّ، وإن كان الأمر ظنّا وحسب؛ فما ينبغي له أن يُفني أُمّةً بالظِّنّة.

---

[١] لطف التدبير، ص١٨٨-١١٩.

وإذا انتقض اليقين انتقض ما دونه، ولم يعد في نقض الظن مزيد حِجاج، وكان الأَوْلى بعمرو أن ينقض الظن أولا، ثم ينتقل إلى اليقين؛ فلا يكون حينئذٍ في حِجاجه حشوٌ لا يُحتاج إليه، ولعل الراوي رتّب الحجتين على وفق الأقوى، أو أن المعترض ابتدأ بمحاجة الحجة المنقولة؛ لأنها لا تُنسب إلى سابور، ثم انتقل إلى الحجة التي أنشأها ظنه؛ تدرّجًا معه، وتلطّفًا في خطابه.

ومن أخبار النجاة بنقض حجة العقاب: خبر الخليفة المهدي (ت١٦٩هـ) وشَرِيك القاضي(ت١٧٧هـ)[1]؛ إذ رأى المهدي في المنام شَرِيكًا القاضي يصرف وجهه عنه، ورأى أنه يقتل زنديقًا، فسأل وزيره الربيع عنه، فحرّضه عليه، ووصفه بأنه: "فاطميٌّ محض"، فاستدعاه المهدي، وقال له: "إني رأيتُك في منامي، كأنّ وجهك مصروفٌ عنّي، وقفاك إليّ، وما ذلك إلا بخلافك عليّ، ورأيتُ في منامي كأني أقتل زنديقا. قال شريك: إنّ رؤياك -يا أمير المؤمنين- ليست برؤيا يوسف الصدِّيق -صلوات الله على محمد وعليه- وإنّ الدماء لا تُستَحَلّ بالأحلام، وإنّ علامة الزندقة بيّنة. قال: وما هي؟ قال: شرب الخمر، والرّشا في الحكم، ومهر البغيّ. قال: صدقتَ -والله- أبا عبد الله، أنت -والله- خيرٌ من الذي حملني عليك"، فنقض القاضي الدليل على مخالفته للخليفة في السياسة والمعتقد، بأنه رؤيا، لا تؤخذ مأخذ رؤيا الأنبياء، والدماء لا تسفك بالأحلام، إنما تسفك في حدود منصوصة في الدين، والزنادقة لهم علامات ظاهرة تدل عليهم تغني عن الظِنّة والأحلام.

---

[1] العقد الفريد، ٢/١٧٨-١٧٩.

المبحث الثاني: النجاة بالإيهام.

الوهمياتُ نبّهتْ عليها صناعة المغالطة، فهي جوهر القول المغالطي، وفيه يصل الوهمُ بين مقدمة ونتيجة، مستغلا تماثلا أو تقاربا لا يلزم منه هذه الصلة[١]، كأن تقول: (الثلاثة وتر، والخمسة وتر؛ فمجموعهما وتر!)، أو أن يُقال: (الحنيفية ملة الأنبياء، فكن حنفيًّا في مذهبك الفقهي!)، والمغلِّطات ثلاث عشرة، منها ما هو أخفى من هذه الأمثلة، ويغيب عن الأذهان.

واستعمال هذه المواضع مزيف للحق، ومزيّن للباطل إذا كانت في العلوم، لكنّ بعضها مستملحٌ في الأدب، وجارٍ به العُرف، ويُروى في النوادر والطرائف، ومنه أمثلة التورية وحسن التعليل[٢]؛ فالاصطلاح لها بالمغالطة لا يناسب المقولات الأدبية؛ فآثرتُ تسميته بمادته: (الإيهام)، على تسميته بأثره في العلوم: (المغالطة).

وتنقسم المغلّطات/الوهميات في علم المنطق إلى ست سببها اللفظ[٣]، وأخرى سبع سببها المعنى[٤]، ولن تُستقصى كلها، بل يُنظر في بعض اللفظيّ منها وبعض المعنويّ.

١ .الإيهام باللفظ.

---

(١) الشمسية، ص٢٣٢.

(٢) دراسات منهجية في علم البديع، ص١٢٧- ٢٢٠.

(٣) الشفاء، المنطق، ٧ السفسطة، ص٩.

(٤) السابق، ص٢٠.

أ . منه الإيهام استغلالا لـ(اشتراك الاسم)[1]، ومنه من أخبار النجاة: خبر نجاة المؤمن من فرعون، ففيه اغتنام لتباين اللفظ بين الحقيقة والادّعاء، فقد رُوِي: "أن رجلَين من آل فرعون سعيا برجل مؤمن إلى فرعون، فأحضره فرعون وأحضرهما، وقال للساعيَين: مَن ربُّكما؟ قالا: أنت. فقال لِلْمؤمن: مَن ربُّك؟ قال: ربّي وربهما. فقال فرعون: سعيتما برجل على ديني؛ لأقتله! فَقَتَلَهما"[2]، فالربوبية لله تعالى، وهو اعتقاد المؤمن، وأوهم فرعونَ أنه يريد الربوبية المدعاة التي نطق بها الساعيان.

ومن أمثلته: خبر الحنفي وخالد بن الوليد (ت٢١هـ) (رضي الله عنه)[3]، إذ: "حُكي أن خالد بن الوليد لما حارب حنيفة بأرض اليمامة، وقتل مسيلمة الكذاب، حتى صار إلى حصنٍ لبني حنيفة، فخَرَجَ إلى خالد رجلٌ من الحصن، فأسلم على يده، ثم قال له: إنّ في الحصن ضعفاء ونساء وصبية؛ فأعطهم أمانًا؛ ليخرجوا إليك، فليس فيهم دَرَك [مَطْلَب]. فأخذ أمانًا من خالد للجميع، ثم أخرجهم، فخرج فيهم رجال؛ كأنهم الأُسْد! فقال خالد: لم أعطك لهؤلاء أمانا، إنما أعطيتك للضعيف. قال الرجل: فهم كلهم ضعيف؛ لأن الله عز وجل يقول: {وَخُلِقَ ٱلإِنسَٰنُ ضَعِيفا} [النساء: ٢٨]. فكتب في ذلك إلى أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) فأجاز الأمان على خالد"، فالإيهام في هذا الخبر كان بضعف الإنسان، الذي منه ضعف نفسه في الميل إلى النساء، وهو

---

(١) السابق، ص٩.

(٢) أخبار الأذكياء، ص ١٧٣.

(٣) لطف التدبير، ص١١٧-١١٨.

في الرجال خاصة، وهو مراد الآية[١]، ومنه ضعف بدني عن القتال، خاص بالنساء والصبية، فحمل الحنفي قوله على الأول بعد أن أوهم أنه يريد الثاني، والثاني هو القريب لأن المقام قتال، ويحتمل أن العطف في قوله: "في الحصن ضعفاء ونساء وصبية" على أصله، وهو تغاير المعطوفات، وهو حجة للحنفي، ويحتمل أنه من عطف الخاص (النساء والصبية) على العام (الضعفاء)، وهو الذي أوهم به.

ب . ومن إيهامات اللفظ: استغلال ما في التركيب من احتمالات المعهود في الاسم الموصول والمرجع في اسمي الإشارة والضمير[٢].

فمن الإيهام بالاسم الموصول خبر أسارى الجماجم[٣]، وهي وقعة بين الحجّاج وابن الأشعث (ت٨٥هـ) عند دير الجماجم، كان فيها بعض التابعين، ومنهم مطرّف بن عبد الله (ت٨٦هـ)، وقد أمر عبد الملك بن مروان (ت٨٦هـ) في شأن الأسارى "أن يعرضهم على السيف، فمن أقرّ منهم بالكفر في خروجهم علينا؛ فيخلّي سبيله، ومن زعم أنه مؤمن؛ فيضرب عنقه"، فقال الحجّاج لمطرّف: "أتقر على نفسك بالكفر؟ قال: أصلح الله الأمير، إنّ مَن شق العصا، وسفك الدماء، ونكث البيعة، وفارق الجماعة، وأخاف المسلمين لجديرٌ بالكفر. فخلّى سبيله"، وقد أراد مطرّفٌ بالمعهود من الموصول وصلته (من شق العصا، وسفك الدماء، ونكث البيعة، وفارق الجماعة، وأخاف المسلمين لجدير

---

[١] جامع البيان، ٦/٦٢٤.

[٢] الشفاء، المنطق، ٧ السفسطة، ص١٢-١٤.

[٣] العقد الفريد، ٢/١٧٧.

بالكفر) الحجّاجَ نفسه؛ لمّا خَرَج على خلافة عبد الله بن الزبير (ت٧٣هـ)، وظنَّ الحجّاجُ أنه أراد مَن خرج مع ابن الأشعث عليه.

ومن الإيهام باسم الإشارة: خبرٌ في محنة القول بخلْق القرآن بين ابن أبي دؤاد (ت٢٤٠هـ) والحارث بن مسكين (ت٢٥٠هـ)، إذ كان "ابن أبي دؤاد يمتحن الناس بخلْق القرآن، فقال لِلحارث: اشْهَدْ أنّ القرآن مخلوق. فقال: أشهدُ أنّ هذه الأربعةَ مخلوقة. وبسط أصابعه الأربع، فقال: التوراة والإنجيل والزَّبور والفرقان. فعرّض وكنى وتخلّص من القتل"[1]، فكان يشير إلى الأصابع، لا يريد غيرها، ويوهم أنه يريد المعدود بها من الكتب المنزّلة.

وكان الامتحانُ في القرآن وحده، والجواب شمله وغيره من الكتب المنزلة؛ لأنها سبيل إلى العدّ بالأصابع، ولا عدَّ إلا لمتعدد.

ومن الإيهام بالضمير: خبر شائع المقولة مختلف القائلين والسامعين، فيه أن أميرًا لبني أمية أمر سيدا هاشميّ الهوى أن يلعن عليًّا (ت٤٠هـ) -حاشاه رضي الله عنه- على ملأ، وهدده، فخرج المأمور قائلا: إنّ فلانًا "أمرني أن ألعن عليًّا؛ فالعنوه!"[2].

وليس ببعيد أن المموَّه عليه في بعض تلك الأخبار عالمٌ بالإيهام، لكنه أمضاه؛ لأن لجوء خصمه إليه ارتدادٌ منه عن المواجهة، ورضا بتسليم الظاهر الذي قد يظنه أتباعه أنه تسليم تام.

---

[1] أخبار الأذكياء، ص١٧٤.

[2] لطف التدبير، ص١١٩-١٢٠. أخبار الأذكياء، ص١٦٩-١٧٠.

٢. الإيهام بالمعنى.

أ . منه الإيهام بالعرَض الذي يُظن لازمًا[١].

اللازم الذي يباين العَرَض هنا هو اللازم المنطقي، وليس اللازم العاديّ الاعتقاديّ الذي اعتاده الناس واعتقده المخاطب، وهذا اللازم الثاني معتبرٌ في البلاغة، وعليه تُبنى الكناية، وإلّا ففي المنطق لا تلازمَ بين نوم الضحى وكثرة الخدم، ولا بين طول النِّجاد وطول القامة[٢]، لكن الموهِم يستغل لازم العادة واعتقاد المخاطب؛ فيموّه به، حتى إذا ظنه المخاطب تحلّل منه؛ لأنه غير لازم في الحقيقة، ويكون بين أشياء توافقت في الوقوع عُرفًا، كالفورية في ري الظامئ وفي لبس العاري؛ إذا تمكنا من الشرب والستر، إذ يجري في العادة أن الفورية بهما لازمة، فالظامئ إذا وجد الماء أسرع إلى شربه، وكذلك العاري إذا ظَفِر بالثياب.

وفيهما خبران، أولهما: خبر عُمَر (ت٢٣هـ) (رضي الله عنه) والهُرْمُزان (ت٢٣هـ) أحد قادة الفرس، وهو: "لما أتي عمر بن الخطاب بالهرمزان أسيرا، دعاه إلى الإسلام، فأبى عليه. فأمر قتله، فلما عرض عليه السيف قال: لو أمرت لي يا أمير المؤمنين بشربة من ماء، فهو خير من قتلي على الظمأ. فأمر له بها؛ فلما صار الإناء بيده قال: أنا آمن حتى أشرب؟ قال: نعم. فألقى الإناء من يده وقال: الوفاء يا أمير المؤمنين نور أبلج. قال: لك التوقّف حتى أنظر في أمرك، ارفعا عنه السيف. فلما رفع عنه قال: الآن أشهد أن لا إله إلا الله وحده

---

[١] الشفاء، المنطق، ٧ السفسطة، ص٢٠.

[٢] شرح مفتاح العلوم، ٣/٢٠، ٤٣٨

لا شريك له، وأنّ محمدا عبده ورسوله. فقال له عمر: ويحك! أسلمت خير إسلام، فما أخّرك؟ قال: خشيت يا أمير المؤمنين أن يقال إن إسلامي إنما كان جزعا من الموت. فقال عمر: إن لفارسَ حلومًا؛ بها استحقّت ما كانت فيه من الملك. ثم كان عمر يشاوره بعد ذلك في إخراج الجيوش إلى أرض فارس، ويعمل برأيه"[١].

فالأمان الذي ناله الهرمزان مؤقت بالشرب، ولِعُمَرَ أن يحبسه، فإذا شرب قتله، وإن لم يشربْ قتله العطش، وإنما نجا الهرمزان من ظنّة النفاق؛ إذ أسلم على السعة.

والخبر الثاني: أن شبيبًا الخارجي (ت٧٧هـ) قتل عتّاب بن ورقاء (ت٧٧هـ) – من قادة الحجّاج– وتتبّع عسكره، فأدرك أحدَهم، وهو يسبح في الفرات، فقال شبيب: "اخرجْ إليّ. فقال: إني أخاف أن تقتلني قبل أن ألبس ثيابي. قال له: فأنت آمنٌ إلى أن تلبس ثيابك. فقال: واللهِ لا ألبسها أبدًا. وانصرف عنه شبيب"[٢]، ولشبيب أن يقيم على السابح مَن ينتظره، فإما أن تضعف قواه فيغرق، وإما أن يخرج فيُستر، ويُقتل، ولعله تركه؛ تورّعًا منه ومن أصحابه عن مرأى لا يحِلّ، وربما كان هذا في علم السابح.

ب . ومنه إيهام العكس، ويجري في اللزوم المنطقي بأن تعكس العلاقة بين اللازم والملزوم[٣]، ويأتي في اللزوم العادي الاعتقادي أيضًا، فالأصل أن الملزوم

---

[١] العقد الفريد، ١٧١/٢.

[٢] العفو والاعتذار، ٢٢٦/١.

[٣] الشفاء، المنطق، ٧ السفسطة، ص٢٣-٢٤.

هو الذي يدل على اللازم، ويوصل إليه، فالرماد بكثرته -عند الأوائل- يوصل إلى الجواد، لكن ما كلُّ جواد سيوصلك إلى رماد كثير حول بيته، فمن الناس مَن بَذْلُه بنقوده لا بوقوده، بَيْدَ أنّ الموهِم يعكس.

ومن أمثلة هذا الإيهام: خبر معن بن زائدة وأسراه: "كان معن بن زائدة (ت١٥٢هـ) قد أمر بقتل جماعة من الأسرى، فقام إليه أصغر القوم، فقال له: يا معن، أتقتل الأسرى عطاشا؟ فأمر لهم بالماء؛ فلما سقوا قال: يا معن: أتقتل ضيفانك؟ فأمر معن بإطلاقهم"[1]، فمِن لوازم الضيافة أن تَرْوِي ضيفك، فكلُّ ضيفٍ مرويٌّ، لكن الأسير عكس، وجعل كلَّ مرويٍّ ضيفًا، بيد أن مَعْنًا قَبِلها منه؛ صونًا لصيته عن وهمٍ يكدّره، فالذي موَّه به الأسيرُ قد يَتَمَوَّه على الأفهام، ويروج على الألسن.

[1] العقد الفريد، ٢/١٧١.

المبحث الثالث: النجاة بالخطابة.

لا تُحَدُّ الخطابةُ بالمنبرية، بل هي قولٌ إقناعيّ، سواء أقيل على منبر أم قيل على غيره، والإقناع ليس كل انقياد ذهني، بل هو نوع منه، يختص بفئة يدين بها جمهور البليغ عامة[١]، ولا يفحصون عنها، كمكارم الأخلاق، وموارد الأمثال، وفضيلة القائل، وانفعاله؛ فيتأثرون بها، ويُرجى أنهم يأخذون بنتائجها؛ فالإقناع فيه معنى القناعة، أي الرضا ببعض الأدلة[٢]، ولا سيما المشهور منها الذي يألفه قوم البليغ بحسب أعرافهم وخِصالهم وقُدُواتهم.

وتنقسم المقنعات إلى مقنعات أولى، وأخرى خارجة[٣]، والفرق أن الأُولى للقول القياسي الذي ينشِئُه البليغ، وفيه تلازم بين مقدمة ونتيجة[٤]، وأمّا تنميقُه لقوله، والقولُ الذي لغيره ويستشهد به، والأحوالُ التي يتصف بها، فهي إقناعات خارجية.

١. الضمير الخطابي:

هو قياس أضمر فيه شيء من مقدماته ونتيجته؛ لذيوعه، وقبوله الناس له، وخاصة مكارم الأخلاق[٥]، كقولنا: حاتم جواد نجده مغنيًا عن أن يُفَصّل قياسه هكذا: (حاتم جواد وكل جواد محمود؛ فحاتم محمود)؛ فحَمْدُ الجودِ مشهور، وليس من البلاغة التصريح بمثل هذا الذي يعده الناس كالبديهي، قال حازم:

---

(١) ينظر الشفاء، المنطق، ٨ الخطابة، ص٣٩

(٢) الخطابة، ص٩.

(٣) السابق، ص٣٩.

(٤) السابق، ص٢٧، ٣٩-٤١.

(٥) النجاة، ٨٢/١.

"لما كان القول القياسي قد لزمه الطول والتكرار لم يكن لهم بُدّ فيما قصدوا به البلاغة من كلامهم من أن يُعدِّلوا مقدارَه، ويُميطوا تكرارَه؛ فإن الكلام إذا خفّ واعتدل حَسُن موقعُه من النفس، وإذا طال اشتدتْ كراهةُ النفس له"[1].

ولأجل الحمد دعا المتّهمون أو شفعاؤهم أصحابَ العقاب أن يتخلّقوا بالعفو، وما ذلك إلا لأنه خلق كريم، وامتاز بغلبته على أخبار النجاة، حتى تعنونت به فصول وإضمامات في المصادر، كما مر في المقدمة.

ومن أخباره: أن المأمون كان: "مؤثرا للعفو؛ كأنّه غريزة له، وهو الذي يقول: لقد حُبّب إليّ العفو حتى إني أظنّ أني لا أثاب عليه. وأُحضر إلى المأمون رجلٌ قد أذنب، فقال له المأمون: أنت الذي فعلتَ كذا وكذا؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، أنا الذي أسرف على نفسه، واتّكل على عفوك. فعفا عنه"[2]، والخبر يُميّز العفو من الغرائز، ويبين أنه مكتسب، يشعر بهذا تصدير الخبر بأن العفو: "كأنه غريزة"، فليس هو بغزيرة، لكنّ التزام المأمون التخلّق به قد أشبه الغرائز التي تلازم الحيّ، والخبر متجه إلى هذا، أي إلى ملازمة العفو، وألّا يكون خاصًّا بساعة ارتياح، ولحظات سرور سرعان ما تذهب، والمأمون نموذجٌ شَهِد به الراوي، والمأمون نفسه، والمذنب؛ فالراوي يذكر أنه كان "مؤثرًا للعفو"، وأنه كال"غريزة"، ولا يُفصِّل الراوي في الجناية التي في الخبر، ويقتصر على أن الجاني "قد أذنب"، ولو فصّل في الذنب لعُوند في استحقاقه العقاب، أو العفو، ولقيل: (إن مثل هذا لا يُحاسب، واتهامه ظلم)، أو قيل : (إن مثل هذا لا

---

(1) منهاج البلغاء، ص٦٥.

(2) نهاية الأرب، ٦/٦٠.

يُعفى عنها، والعفو عنه تفريط)، فيضعف التوجيه الذي سيق إليه الخبر، بل الباب الذي سيق فيه، وهو: "حسن السياسة وإقامة المملكة"[1] من قسم "المُلْك"؛ وهو باب تهذيبي؛ لا يحسن أن يجعل فيه ما يتعقّبه المتلقي بالمعاندة. ومن أخباره: خبر جانٍ موثّق بالحديد اقتيد إلى دار الأمير محمد بن حميد الطوسي (ت٢١٤هـ)[2]، وكان الأمير يتغدّى مع جلسائه، فقال أحدهم: "الحمد لله الذي أمكنك من عدوّك؛ فسبيله أن تُسقى الأرض من دمه"، ووافقه الجلساء كلهم، وأشاروا بطرائق مختلفة في قتل الرجل، فقال محمد: "يا غلام، فُكّ عنه وثاقه، ويُدْخلَ إلينا مكرّمًا"، فجيء بالرجل، فهشّ له محمد، ورحّب به، وأشركه في المائدة، وجدّد له الطعام، وآنسه في المؤاكلة، ثم أعاده إلى أهله موصولا بالإحسان والتكريم، ولم يذكّره بجنايته ثم قال لجلسائه: "إنّ أفضل الأصحاب من حضّ الصاحب على المكارم، ونهاه عن ارتكاب المآثم؛ وحسّن لصاحبه أن يجازي الإحسان بضِعْفه، والإساءة بصَفْحه؛ إنّا إذا جازينا مَن أساء الينا بمثل ما أساء، فأين موقع الشكر على النعمة فيما أتيح من الظفر! إنه ينبغي لمن حضر مجالس الملوك أن يمسك إلا عن قولٍ سديد، وأمرٍ رشيد، فإنّ ذاك أدوم للنعمة، وأجمع للألفة؛ إن الله تعالى يقول: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا. يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ} [الأحزاب: ٧٠، ٧١]".

---

[1] السابق، ٦/٤٣.

[2] السابق، ٦/٦٣.

وفي الخبر ما يميزه، وهو أن العفو مذكور بأحد متوارداته، وهو الصفح، وأن مقولة محمد مطوّلة كأنها خطبة منبرية، والأميز أن المُنْجِي والمَنْجُوّ مِن عقابه واحد، فهو صاحب العقاب وصاحب الحجة في خلاص الجاني، ويميّز الخبر امتزاجه بمقنعين خارجيين، هما: تحسين القول بالسجع، والاستشهاد بقول يؤيده، وهو آية من القرآن، وليس التفريقُ بين الإقناع الأَوَّليّ والخارجيّ مفاضلةً تُرجِّحُ الأَوَّليَّ في الحجة، فما هو إلا تفريق بين ما يُنشئه البليغ وما يستعين به، وكم من استشهادٍ أمضى حِجاجًا من أقيسة اصطنعها البليغ.

٢ . التمثيل الخطابي.

وهو: "الحكم على جزئيٍّ بحكمٍ موجودٍ في جزئيٍّ آخر ماثله"[١]، ولم تظهر له أمثلة تامة من أخبار النجاة؛ إلا ما جرى مجرى الحِجَاج بالقدوة، ومنه حِجاج جعفر بن محمد (ت١٤٨هـ) بعمل الأنبياء: سليمان وأيوب ويوسف (عليهم السلام)، إذ روي أن أبا جعفر المنصور (ت١٥٨هـ) مر بالمدينة النبوية، وكان فيها أبو عبد الله جعفر بن محمد من ذرية الحسين بن علي (رضي الله عنهما)، وكان المنصور مُغْضَبًا عليه، فاستدعاه، فلما جاءه جعفر، سلّم عليه، فقال المنصور: "لا سلّم الله عليك، يا عدوّ الله! تعمل عليّ الغوائل في مُلْكي، قتلني الله إن لم أقتلك. قال: يا أمير المؤمنين، إنّ سليمان –صلّى الله على محمد وعليه– أُعْطِيَ فشكر، وإن أيوبَ ابتُليَ فصبر، وإن يوسفَ ظُلِمَ فغفر؛ وأنت على إرثٍ منهم، وأحقُّ من تأسّى بهم. فنكس أبو جعفر رأسه مَلِيًّا، وجعفرٌ واقف، ثم رفع رأسه، فقال: إليّ أبا عبد الله، فأنت القريب القرابة، وذو الرّحم

---

[١] منهاج البلغاء، ص٦٧.

الواشجة، السليم الناحية، القليل الغائلة. ثم صافحه بيمينه، وعانقه بشِماله، وأجلسه معه على فراشه، وانحرف له عن بعضه، وأقبل عليه بوجهه؛ يحادثه ويسائله، ثم قال: يا ربيع، عجِّلْ لأبي عبد الله كُسوته وجائزته وإذْنه"[1].

وهؤلاء الأنبياء منهم مَن اختُبر بالنعماء، وهو سليمان؛ إذ آتاه الله الملك، وسخّر له الجن والريح، ومنهم من اختُبر بالبأساء، وهو أيوب، فمسه النُّصْب والعذاب، ومنهم من اختُبر بهما؛ بالبأساء والنعماء، فاغترب عن أبيه، وأُلقي في غيابة الجب، ولبث في السجن بضع سنين، ثم صار عزيز مصر وملكها، وهو يوسف، فإن كنتَ في امتحان، فاشكر كما شكر سليمان، ولا تطغَ وتتساهلْ في دماء الناس، واصبر كما صبر أيوب، ولا يطشْ عقلك، وتجازفْ في خصومة الناس، وإن تبينتْ لك خصومتهم واستحقاقهم العقاب فاغفر كما غفر يوسف.

ومن طريف الأخبار: أن حَرُوريّة (خارجية) دعتْ وزراء الحَجّاج أن يقتدوا بوزراء فرعون، إذ: "أُتي الحَجّاجُ بحروريّة، فقال لأصحابه: ما تقولون في هذه؟ قالوا: اقتلْها -أصلح الله الأمير- ونكّل بها غيرها! فتبسّمت الحرورية. فقال لها: لِمَ تبسّمتِ؟ فقالت: لقد كان وزراءُ أخيك فرعون خيرًا من وزرائك يا حَجّاج؛ استشارهم في قتل موسى فقالوا: {أَرْجِهْ وَأَخَاهُ} [الأعراف: ١١١]، وهؤلاء يأمرونك بتعجيل قتلي. فضحك الحجاج، وأمر بإطلاقها"[2].

---

[1] العقد الفريد، ٢/١٥٩-١٦٠.

[2] السابق، ٢/١٧٤.

يحتمل أن الحروريّة طلبت أن يؤجل قتلها؛ لعلها تظفر بعفو أو هرب؛ وأوجبته على الحجاج؛ لأن هذا فعل قدوته، الذي وصفته بـ"أخيك"، وأن وزراءه خالفوا وزراء القدوة، ولا يحمل هذا على الاستهزاء؛ لأن هذا من مذهب الخوارج في مخالفيهم؛ أنهم والكفار سواء، فتخلّص منه الحَجّاج، وحَوّل القدوةَ الذي زعمته الحرورية إلى قدوة مضادة؛ يعامله معاملة الضد لا المثال، وهذا سلوك لاحظه بِرِلْمان، وهو الهرب من الاقتداء؛ يتحيّنُ فيه الهاربُ المخالفةَ؛ ترفعًا عن هذه العلاقة[1].

ويحتمل أنها أرادت السخرية؛ وسيّان عندها تعجيل القتل وإرجاؤه؛ لأنها "تبسّمت"، و"ضحك"، وهو الأقرب؛ لأن تعبيرات المتخاطبين هي الأَولى في تفسير كلامهم، وحينئذٍ لا يعد حجاجها من التخلص من العقاب بتأخيره، بل يعد ذكر فرعون ومشورة وزرائه حجة في أن خصمها أسوأ منه، وأنه جدير بالمقاتلة.

٣. فضيلة القائل/الإيتوس.

يجيء في بعض أخبار النجاة أنها بوسيط بين المتهم وصاحب العقاب، ولهذا الوسيط شرف، يجعله مسموع القول، مقبول الرأي.

فإذا كان لسمت صاحب الحجة شأنٌ في الأخذ بها عُدَّ هذا من الحِجاج بـ(فضيلة القائل)[2]، وهو ترجمة الأوائل لـ(Ethos)، أما المعاصرون فاستعملوا أعجميّه، وله أضرب، فمنه السابق على الخبر، ومنه المزامن له، أو: ما قبل

---

(١) الإمبراطورية الخطابية، ص١٩٣-١٩٥.

(٢) الخطابة، ص٣٢-٣٣.

الخطابي، والخطابي[١]، لأن المتلقي قد يدرك أن للقائل شرفًا قبل قوله، وقد يدرك شرفه من كلامه، ومن قبلُ قسّم ابن سينا الخطابة إلى عمود وأعوان وحِيل، وفضيلة القائل/الإيتوس تأتي عونًا إذا عَلِم المتلقي من القائل "اشتهاره بالصدق والتمييز"[٢]، وتأتي حيلة من القائل "بأن يتكلّف الدلالة على فضيلة نفسه"[٣].

أ . فضيلة القائل السابقة/الإيتوس قبل الخطابي.

من أخبار النجاة التي يظهر أنها من منزلة الشافع، خبر الأحنف بن قيس (ت٧٢هـ) أنه كلّم مصعب بن الزبير (ت٧٢هـ) "في قوم حبسهم، فقال: أصلح الله الأمير! إن كانوا حُبسوا في باطلٍ فالحقُّ يُخرجهم، وإن كانوا حُبسوا في حقٍّ فالعفوُّ يسعهم. فخلّاهم"[٤]، فالقائلُ سيدُ قومه، ومضربُ المثل في الحِلْم، ولولا فضيلتُه ما جَسَرَ على هذا التفصيل، وعلى ذكر احتمال الظلم بقوله: "حبسوا في باطل"، وعلى نسبة إطلاقهم إلى الحق والعفو بقوله: "الحق يخرجهم... العفو يسعهم"، وليس إلى تكرّم الأمير.

ب. فضيلة القائل المزامنة/ الإيتوس الخطابي.

منها ما أدركه الحَجّاج في أسير من أتباع عبد الرحمن بن الأشعث، أنه أطلقه لصدقه، إذ: "جلس الحجاج يقتل أصحاب عبد الرحمن، فقام إليه رجل منهم، فقال: أيها الأمير! إنّ لي عليك حقا. قال: وما حقك عليّ؟ قال: سبّك عبد

---

[١] مشكلات الحجاج بالإيطوس من البلاغة إلى تحليل الخطاب، ص١٠٤.

[٢] الشفاء، المنطق، ٨ الخطابة، ص٩.

[٣] السابق، ص١٠.

[٤] عيون الأخبار، ١٠٢/١.

الرحمن يومًا، فرددتُ عنك. قال: ومن يعلم ذاك؟ فقال الرجل: أنشد الله رجلا سمع ذاك إلا شهد به. فقام رجل من الأسرى فقال: قد كان ذاك أيها الأمير. فقال: خلّوا عنه. ثم قال للشاهد: فما منعك أن تنكر كما أنكر؟ قال: لقديم بغضي إياك. قال: ويخلّى هذا لصدقه"[1].

والشاهد من هذا الخبر: تخلية الثاني؛ لمّا ظهر للحَجّاج صِدْقُه، وقولُ الحَجّاج: "ويخلّى عنه"، يُلحظ فيه صيغة الخبر، وأما الأسير الأول فقال فيه: "خلوا عنه"، بصيغة الإنشاء الطلبي؛ فالأول أنشأ الحجاج التخلية بنفسه، إذ أمر بها، والثاني أخبر بتخليته؛ كأن الذي أطلقه فضيلة القائل التي ظهرت من الأسير الصادق، ولو أطاع الحجاج هواه لما ترك هذا الأسير، فقد أبان عن تأصّل كرهه له، لكنّ الصدق فرض نفسه.

---

[1] السابق، ١/٩٨-٩٩.

المبحث الرابع. النجاة بالشعر.

يُراد بالشعر -إذا كان قسيما للصناعات المنطقية- ما يكون به الكلام شعرًا، وهو التخييل عند المنطقيين، وأما حدّه بالوزن فهو عند الجمهور[١]، قال حازم مُعرّفا بالتخييل: "أن تتمثّل للسامع من لفظ الشاعر المخيِّل أو معانيه أو أسلوبِه أو نظامِه، وتقوم في خياله، صورةٌ أو صورٌ، ينفعل لتخيّلها أو تصورها أو تصور شيء آخر بها انفعالا من غير روية إلى جهة الانبساط أو الانقباض"[٢].

ويَفْضُل التخييل على الوزن بأن الذهن ينقاد به؛ فالتخييل أن يُصْنَعَ في ذهن المخاطب بالشعر خيالٌ يفضي به إلى انبساط أو انقباض، وإن لم يتأثر الفكر، قال ابن سينا: "التخيلُ إذعانٌ، والتصديقُ إذعانٌ، لكن التخيل إذعان للتعجب والالتذاذ بنفس القول، والتصديق إذعان لقبول أن الشيء على ما قيل فيه"[٣].

وقال ابن الأثير (ت٦٣٧هـ) في أثر المجاز -وهو بعضٌ من التخييل- ذاكرًا أن من آثاره في نفس السامع تركه العقاب: "أعجب ما في العبارة المجازية أنها تنقل السامع عن خُلُقه الطبيعي في بعض الأحوال، حتى أنها ليسمح بها البخيل، ويشجع بها الجبان، ويحكُم بها الطائش المتسرع [يكون حكيمًا]، ويجد المخاطب عند سماعها نشوة كنشوة الخمر، حتى إذا قُطع عنه ذلك الكلام؛ أفاقَ، وندم على ما كان منه من بذل، أو ترك عقوبة، أو إقدام على أمر مهول"[٤].

---

(١) شرح الإمام السعد التَّفْتَزاني على الشمسية، ص٣٧٥.

(٢) منهاج البلغاء، ص٨٩.

(٣) فن الشعر من كتاب الشفاء، ص١٦٢.

(٤) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ٨٩/١.

كأن يُقال في العسل إنه رجيع حشرة؛ فينقبض شاربه، وإن لم يتغير اعتقاده في طِيب العسل ونفعه، أو أن يُقال في شراب محرّم إنه ياقوت أحمر سيّال أو حجر أصفر متلألئ كما في أشعار أبي نواس؛ فيعجب السامع البَرّ بهذا، وإن لم يتغير اعتقاده في خبثه وحرمته.

وأخبار النجاة ذات الأشعار تختلف في نصيبها من التخييل، وسيناقش هذا في الأضرب الآتية:

١ .ما كان في الخبر شعرٌ واحدٌ للنجاة فقط.

وفيه يخيّل الشاعر صورة تتحرك لها نفس صاحب العقاب، تُصنع بوصف أو بمحاكاة، كما في تعريف حازم:

أ . فقد تكون الصورة وصفًا للشيء على ما هو عليه، مثل خبر تميم بن جميل الذي جيء به إلى المعتصم (ت٢٢٧هـ) بعد تغلبه على شاطئ الفرات[١]، فأُحضر السيف والنطع، وقال المعتصم: "يا تميم، إن كان لك عذرٌ فأتِ [كذا] به، أو حجةٌ فأدلِ بها"، فتكلم تميم بكلام كالخطبة، حَمِد الله، وسأل العفو، ثم أنشأ أبياتًا تسعة، كان منها أربعة في صِبيته، وهي:

"وما جَزَعي مِن أنْ أموتَ وإنّني ... لَأعلمُ أنّ الموتَ شيءٌ مُؤقّتُ
ولكنَّ خَلْفي صِبْيةٌ قد تركتُهمْ ... وأكبادُهم مِن حسرةٍ تتفتّتُ
كأني أراهمْ حين أُنْعَى إليهمُ ... وقد خَمَشوا تلك الوجوهَ وصَوّتوا
فإنْ عِشْتُ عاشوا خافضين بِغِبْطَةٍ ... أذودُ الرّدى عنهم وإن مِتّ مُوّتوا"

[١] العقد الفريد، ٢/١٥٨-١٥٩.

هي التي جعلت المعتصم يغفر له جنايته؛ إذ قال: "كاد –والله يا تميم– أن يسبق السيف العذل، اذهب؛ فقد غفرت لك الصَّبْوة، وتركتك للصِّبية"، والصورة واصفة لا محاكية، فنصّ على أنّهم صبية –ولم يُشبِّهْهم تشبيهَ الحطيئةِ صبيتَه بأفراخ– وأنهم في حسرة، وأنهم سيجزعون عند موته بخمش الوجه ورفع الصوت، فلم يجاوز الحقيقة إلا بالمبالغة في تفتّت الكبد، فالصورة غيّرت حُكم المعتصم، ولم تغيّر اعتقاده بجناية تميم، فهي "صبوة"، وحكمه "مغفرة"، ولا غفران إلا لذنب.

ومع أن تميمًا قال في كلامه قبل الأبيات: "لم يبقَ إلا عفوك أو انتقامك، وأرجو أن يكون أقربهما منك وأسرعهما إليك أولاهما بإمامتك، وأشبههما بخلافتك"، إلا أن المعتصم آثر صورة الصبية وتأثر بها، وقدّمها على المحامد الإقناعية.

ب .وقد تكون الصورة بالمحاكاة كخبر أبي دُلف (ت٢٢٦هـ) أنه كان قاطع طريق، يلوذ بالجبال، ولما ظفِر به المأمون، "أمر بضرب عنقه؛ فقال: يا أمير المؤمنين دعني أركعْ ركعتين. قال: افعل. فركع، وحبّر أبياتًا، ثم وقف بين يديه، فقال:

بعْ بيَ النّاسَ فإنّي خَلَفٌ ممّن تبيعُ
واتّخذني لكَ دِرْعًا قَلَصَتْ عنه الدُّروعُ
وارمِ بي كلَّ عدوٍّ فأنا السّهمُ السّريعُ

فأطلقه، وولّاه تلك الناحية، فأصلحها"[1]، وكان لأولي القوة والبأس الشديد من الرجال قدرًا عند أهل السياسة في القديم؛ لأن قوة السلاح بقوة حامله، وليس بتقنيته كما في زمننا، فلمّا خيّل أبو دلف قوته، وأنه درع لا يُضاهى، وسهم سريع؛ استحسن المأمون أن يدّخره لأعدائه.

وهكذا صوّر الخبران؛ أن عصيان تميم بن جميل وأبي دلف المقلق لهيبة المُلك قد غُفِر بتخييل أثّر في المعتصم والمأمون، وقد يظهر أن فيه مجازفة، لا يستسيغها المقام، الذي فيه مستشارون مؤثرون، وقلبٌ مشحونٌ بالغيظ، متشوّفٌ إلى النقمة، وفيه مهلةٌ يفيق فيها الحاكم من غشاوة الصورة، إن كان واقعًا في غوايتها.

والرأي أن التخييل بطّأ الحكم، وخفّف سَوْرة الغضب، فكان للتأني موضع، يقلّب فيه الحاكم النظر، ويداول الرأي، ويوازن المصالح والمفاسد، حتى انتهى إلى تخلية الجاني، واصطناعه لخدمته، بيد أن الراوي المتأدب اقتصر على الحوارات ذات البلاغة، ولو لم يفعل لكانت أخبار الأدب كمحاضر القضاة.

٢ .ما كان في الخبر شعر جناية وشعر نجاة، فتكون جناية الشاعر من شعره، وللشاعر سبيلان للنجاة:

أ . إما أن ينكر هذه الجناية، ويزعم أن شعره مرويٌّ روايةً خاطئة، اختلف فيها إعرابٌ أو حرفٌ.

---

[1] السابق، ١٧٢/٢.

فمما صحّح الشاعر إعراب بيته: خبر عِتبان البكري الشيباني[1]، لما حبس الحجّاجُ مسمعَ بن مالك من بكر بن وائل؛ قال عِتبان أبياتًا حميةً لبكر، يذكر فيها الخوارج من قومه، ومنهم شبيب الخارجي، قال فيه:

"... ومنّا أمير المؤمنين شبيبُ"

فصار عبد الملك يطلبه، ففر عِتبان، ثم جاء عبدَ الملك بعد أن استأمنه، فذكر عبد الملك له البيت: "... ومنا أميرُ المؤمنين شبيبُ، فقال: ما قلتُ كذا، إنما قلتُ: ومنا أميرَ المؤمنين شبيبُ"، فعفا عنه عبد الملك، وتأويلها كما في آخر الخبر: "ومنّا يا أميرَ المؤمنين".

ومما استدرك الشاعر تغيير حرف من بيته: أن عدي بن الرِّقاع (ت٩٦هـ) جِيء به موثّقًا إلى سليمان بن عبد الملك (ت٩٩هـ)، وقال: "إن كنتَ لكارهًا لولايتي! قال: وكيف ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال: حين تقول في مديحك الوليد:

عُذْنا بذي العرش أن نبقى وأن نكون لراعٍ بعدهُ تبعا
ونفقدهُ

فقال ابن الرقاع: والله، ما هكذا قلتُ، يا أمير المؤمنين! ولكني قلتُ:

عُذْنا بذي العرش أن نبقى وأن نكون لراعٍ بعدهم تبعا
ونفقدهم

[1] العفو والاعتذار، ١/١٨٤-١٨٨.

قال: أفكذاك؟ قال: نعم. قال: فكّوا حديده، وردّوه على موكبه إلى أهله"، وعلّق الراوي على الخبر: "وإنما خصّ بتلك المِدْحة الوليدَ"[1]، فليستْ لبني أمية كما في البيت المعدَّل، ولا تحسب الميم مزيدة على (نفقدهُ، بعدهُ)، بل أبدلها الشاعر من الواو المشبعة من الضم، التي تعد حرفا عروضيا، لا تلتزم بعض الإملاءات كتابته، والتواصل آنذاك شفوي، ولم يشع فيه أن تتناقل الأشعار كتابة.

وتعد هذه السبيل من الجدل نقضًا للدليل؛ لأنها إبطال له، ولا تعد نجاة بالتخييل.

ب .وإما أن يرتجل الشاعر شعرًا يُرضي به من اتهمه، فيجعل للنجاة شعرا كما أنّ للجناية شعرا، فيتعارضان، ويتساقطان، ويتخلص من العقاب، ومنه خبر هارون الرشيد (ت١٩٣هـ) ومسلم بن الوليد(ت١٩٥هـ)[2] الذي: "رُمي عنده بالتّشيّع، فأمر بطلبه، فهرب منه، ثم أمر بطلب أنس بن شيخ كاتب البرامكة فهرب منه، ثم وجده هو ومسلم بن الوليد عند قينة ببغداد، فلما أتي بهما، قيل له: يا أمير المؤمنين، قد أُتي بالرجلين. قال: أيّ الرجلين؟ قيل: أنس بن أبي شيخ، ومسلم بن الوليد. فقال: الحمد لله الذي أظفرني بهما! يا غلام. أحضرهما. فلما دخلا عليه، نظر إلى مسلم، وقد تغيّر لونه؛ فرقّ له، وقال: إيه يا مسلم، أنت القائل:

---

[1] السابق، ١/٢٣٧-٢٣٨.

[2] العقد الفريد، ٢/١٨٠-١٨٢.

أَنِسَ الهوى ببني عليٍّ في الحشا وأراه يطْمحُ عن بني العبَاسِ

قال: بل أنا الذي أقول يا أمير المؤمنين.

أَنِسَ الهوى ببني العمومة في الحشا مستوحشًا مِن سائر الإيناسِ
وإذا تكاملت الفضائلُ كنتمُ أولى بذلك يا بني العبّاسِ

قال: فعجب هارون من سرعة بديهته، وقال له بعض جلسائه: استَبْقِه يا أمير المؤمنين؛ فإنه من أشعر الناس، وامتحِنْه؛ فسترى منه عجبا"، وآخر الخبر استنشده من شعره، ثم وصله، وخلّى سبيله.

ولولا أن في الخبر تعجبًا من بديهة مسلم لكان ذكره في الضرب السابق أولى؛ لأن شعره في النجاة مبني على شعر الجناية إيقاعا ولفظًا؛ فالقافية والوزن والكلمات الأولى والأخيرة "أنس الهوى ببني... بني العباسِ" متفقة في الشِّعْرَيْن.

وروي أن علي بن جبلة (ت٢١٣هـ) دخل على الأمير حُميد الطوسي (ت٢١٠هـ)، فأمر بوجْء رقبته، وطرده؛ لأنه قال في أبي دُلَف:

"إنما الدنيا أبو دلفٍ بين مبداه ومحتضرهْ
فإذا ولّى أبو دلفٍ ولّتِ الدنيا على أثرهْ

فقال في وقته: فإني قد قلت في الأمير. قال: وما قلت؟ قال:

إنما الدنيا حُميدٌ وعطاياه الجِسامُ
فإذا ولّى حميدٌ فعلى الدنيا السلامُ

فرضي عنه حميد، وأدناه، وأمر له بجائزة"[1].

والشعران متقاربان في تخييل أن الدنيا مساوية للممدوح، وببحرين مجزوءين من المديد والرمل، فيهما تفعيلة (فاعلاتن)، وَحْدَها في الرمل، ومعها (فاعلن) في المديد.

وخبرا مسلم بن الوليد وعلي بن جبلة من رد حجة العقاب بحجة توجب الثواب أو تسقط العقاب؛ فيعدان من الجدل بالمعارضة بين حجتين، ولا يمتنع أن يكون في الشعر الذي عارض به الشاعر تهمته مزيدَ تخييل؛ فالتخييل لا يمتنع أن يجتمع بغيره؛ فيكون للقول تأثير انفعالي وفكري معًا، ولحظ هذا حازم القرطاجني؛ فقال: "وظنّوا ما وقع من الشعر مؤتلفا من المقدمات الصادقة فهو قول برهاني، وما ائتلف من المشهورات فهو قول جدلي، وما ائتلف من المظنونات الراجحة فهو قول خطبي، ولم يعلموا أن هذه المقدمات كلها إذا وقع فيها التخييل والمحاكاة كان الكلام قولا شعريا"[2].

ومما يحتمل هذا السبيل من المعارضة: خبر القرشي وعمر[3]، وهو أن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) استعمل قرشيًّا على عمل، ثم استدعاه لما بَلَغهُ أنه

---

[1] العفو والاعتذار، ١٩٧/١-١٩٨.

[2] منهاج البلغاء، ص٨٣.

[3] أخبار الأذكياء، ١٥٦.

قال بيتًا في لذّة شراب وتساقيه، "فأشخصه إليه، وذكر أنه إنما أشخصه من أجل البيت، فضم إليه آخر، فلمّا قدم عليه، قال: ألست القائل:

اسْقِنِي شربةً ألذّ عليها واسقِ باللَّه مثلَها ابنَ هشامِ

قال: نعم، يا أمير المؤمنين،

لَعَلَّه عسلٌ باردٌ بماءِ سحابٍ إنني لا أحبُّ شُرْبَ المدامِ

قال: آللّه؟ قال: آللّه! قال: ارجِعْ إلى عملك"، ورواية الخبر تجعل بيت النجاة مخزومًا؛ فـ"لعلّه" زائدة، ووزن البيت يبدأ بـ"عسل"، ويحتمل أنها ليست من البيت، وأنه الخبر هكذا:

"... قال: نعم يا أمير المؤمنين، لعله:

عسلٌ باردٌ بماءِ سحابٍ إنني لا أحبُّ شُرْبَ المدامِ"

وبالخزم يكون الخطاب بـ"لعله" للساقي، فهو المخاطب بالشعر، ولعل للترجي، والمعنى: (أرجو أيها الساقي أن الشربة عسلٌ...) فهو مزامن لبيت التهمة؛ فيكون دليل الجناية ناقصًا، وهذا نقض للدليل؛ لفساده وبتره.

وبلا خزم يكون الخطاب لعمر (رضي الله عنه)، والمعنى: (أرجو يا عمر أن الشربة عسل...)؛ فهو يثبت البيت الذي اتهم به، ويذكر أنه يرجو له تأويلا، ولم يكن هذا الرجاء قبل لقيا عمر، فهو تنبيه على تأويل لا على بيت ناقص،

وهذا من المعارضة بالقلب، وهو إثبات الدليل وتغيير المدلول من مدام إلى عسل؛ فالشعر الذي وصل أمير المؤمنين صحيح؛ لكن معناه مختلف.

وجَعَلَ التأويلَ شعرًا؛ حتى يُقْرَن ببيت التهمة أينما رُوِي، فلا تأتيه مساءلة أخرى، وهذا أقرب؛ بشهادة الراوي أنّ البيتَ صَنَعَه الشاعرُ بعد استدعائه، ولأن العرب لا تخزم بأكثر من أربعة أحرف[1]، ولأن الوزن من جوهر الشعر، والوزن تساوٍ في الحركات والسكنات وترتيبها، والخزم يبعد هذا التساوي إبعادا شديدًا[2]؛ فكيف إذا تجاوزت أحرفه المعهود.

٣. ومن الشعراء من يقر بشعر الجناية؛ لكنه يمنعه أن يكون دليلا على استحقاق الحكم عليه؛ لأنه عن انفعال غلب عليه لا يدل على حقيقة رأيه، أي أنه واقع في التخييل، وهذه حجة الحسين بن الضحاك (ت٢٥٠هـ)، وكان مقرّبًا إلى الأمين (ت١٩٨هـ)، ومناصرا له بشعره على أخيه، فلما انتزع المأمون الخلافة؛ جاء الشاعر إلى المأمون، فغضب عليه، ولم يرحّب به، وذكر له أشعاره، وقال: "هل عرفتَ -يوم قُتِل أخي- هاشميةً قُتِلتْ، أو هُتِكتْ؟ قال: لا. قال: فما معنى قولك؟

ومِمّا شجى قلبي وكَفْكَفَ عَبرتي ... محارمُ مِن آل النبي استُحِلَّتِ

ومهتوكة بالخُلد عنها سُجوفُها ... كعابٌ كقرن الشَّمْس حين تَبَدّتِ

إذا خَفَرَتْها روعةٌ من مُنازعٍ ... لها المُرْطَ عاذت بالخضوع ورَنّتِ

---

[1] العمدة، ١/١٤١.

[2] منهاج البلغاء، ص٢٦٣.

... فقال: يا أمير المؤمنين، لوعةٌ غلبتني، وروعةٌ فاجأتني، ونعمةٌ فقدتُها بعد أن غمرتني، وإحسان شكرته فأنطقني. فدمعتْ عينا المأمون، وقال: قد عفوتُ عنك وأمرت لك بإدرار أرزاقك عليك، وإعطائك ما فات منها، وجعلتُ عقوبة ذَنْبك امتناعي عن استخدامك"[١].

فاللوعة والروعة خيّلتا في اقتحام قصرِ الخُلْد ببغداد الذي فيه الأمينُ ومحارمُه[٢] انتهاكًا لحُرَم الحرائر فيه، فتخيّل فتاةً حسناء في القصر، أزال المقتحمون أستار غرفتها، وانتزعوا مُرْطها الذي تتحجّب به، فتُطرِق رأسها كالخاضعة؛ لتخفي وجهها، وهي باكية، ولبكائها رنين، ففاضت مخيلته بالشعر في هذا، وإلا فمشاهداته خالية منه، وفكره بريء من اعتقاده، والشعر انفعال نفساني لا فكري، مؤقت لا روية فيه، كما قال ابن سينا[٣]، فلا يُبنى عليه المفارقة في الاعتقاد والسياسة، وهذه حجة الشاعر.

---

[١] الفرج بعد الشدة، ١/٣٣٠.

[٢] تاريخ الرسل والملوك، ٨/٤٢٩.

[٣] فن الشعر من كتاب الشفاء، ص١٦١.

الخاتمة

أورد البحث أخبارًا في المنع والمعارضة والنقض، وفي الإيهام باللفظ، وفي الإيهام بالمعنى، وفي ضمير الخطابة، وفي التمثيل، وفي التخييل، قد استُعملت سُبُلًا للخلاص.

وطرائق الحجاج متنوعة، والغالب أنه يُحاجّ بمكارم الأخلاق، ومنها سؤال العفو، وهو من المقنعات الخطابية، وتجيء لطائف أخبار بحجج جدلية وإيهامية؛ فيها ذكاء وطرافة وسرعة بديهة، وأما الحجاج بالشعر، فمنه ما كان تخييلا استدر رغبة أو شفقة من المخاطب، ومنه ما هو من الجدل؛ فينقض الشاعر جناية شعره برواية أخرى معدّلة، أو يعارضه بشعر يُطفئ غضب صاحب العقاب.

وإن الذي نوّع الحجاجَ الانقيادُ الذي يرجوه المتهم في صاحب العقاب؛ فإما أن يكون انقيادا انفعاليا، فسبيله الشعر، وإما أن يكون انقيادا فكريًّا فسبيله المغالطة إن يئس من التصريح، وإن لم ييئس منه فسبيله الخطابة إن كان مُقرًّا بالذنب، أو الجدل إن كان منكرًا له، وهذه القسمة بين الانفعال والفكر، واختصاص الشعر بالأول من قول ابن سينا المتقدم.

وأكثر العقوبات في تلك الأخبار: القتل، وأقل منها: الحبس، والطرد، والغالب أن المتهم يحاج عن نفسه، ولا يتحامى بشفيع، والمخاطبون بحجج النجاة ساسة، وأغلب الأخبار في بني مروان وولاتهم، وفي بني العباس وولاتهم

في أوائل دولتهم، وللحجّاج بن يوسف الثقفي من بين أولاء الساسة النصيب الأوفر، فبدا بين الحَجّاج والحِجَاج صلة أخبارية، وليس تقاربًا صوتيًّا فقط.

والذي لم يُذكر من هذه الأخبار كثير، يشير إلى أن مدونة العفو والاعتذار والتخاصم في العقاب تستحق دراسة بقيتها، خاصة ما خرج عن موضوع النجاة، مما غلبتْ فيه حجةُ العقاب حجةَ النجاة.

المصادر والمراجع:

المصادر:

أولا، الكتب:

١- أخبار الأذكياء، ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ): أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، عناية: بسام الجابي، دار ابن حزم، بيروت، ٢٠٠٣.

٢- الألفاظ المستعملة في المنطق، أبو نصر الفارابي (ت ٣٣٩هـ): محمد بن محمد، حققه وقدم له وعلق عليه: محسن مهدي، دار المشرق، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ط٢، ١٩٨٦.

٣- الإمبراطورية الخطابية، شاييم بيرلمان، ترجمة: الحسين بنوهاشم، دار الكتاب الجديد، ليبيا، ط١، ٢٠٢٢.

٤- تاريخ الرسل والملوك، الطبري (ت٣١٠هـ): أبو جعفر محمد بن جرير، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٩٧٦.

٥- التعريفات، السيد الشريف الجرجاني، طبع: مصطفى أفندي فهمي الكتبي، المطبعة الحميدية المصرية، ١٩٠٤.

٦- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، تحقيق: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر، دار هجر للطباعة والنشر، مصر، ط١، ٢٠٠١.

٧- الخطابة، أبو نصر الفارابي، تحقيق وتعليق: محمد سليم سالم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مطبعة دار الكتب، ١٩٧٦.

٨- دراسات منهجية في علم البديع، الشحات محمد أبو ستيت، دار خفاجي للطباعة والنشر، ط١، ١٩٩٤.
٩- رسالة الآداب في آداب البحث والمناظرة، محمد محيي الدين عبد الحميد (ت١٣٩٣هـ)، المكتبة الهاشمية، بيروت، ٢٠١٥.
١٠- السيرة النبوية، ابن هشام (ت٢١٣هـ): أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، تحقيق: مصطفى السقا، وإبراهيم الإبياري، وعبد الحفيظ الشلبي، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط٢، ١٩٥٥.
١١- شرح الإمام السعد التفتزاني على الشمسية، التَّفْتازاني (ت٧٩٢هـ): سعد الدين مسعود بن عمر، تحقيق: جاد الله بسام صالح، دار النور المبين، عمّان، ٢٠١١.
١٢- شرح الوريقات في المنطق، ابن النفيس (ت ٦٨٧هـ): علاء الدين علي بن أبي الحزم الدمشقي، حققه وعلّق عليه: عمار طالبي، وفريد زيداني، وفؤاد مليت، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط١، ٢٠٠٩.
١٣- شرح مفتاح العلوم، التَّفْتازاني، تحقيق: عجاج عودة برغش، دار التقوى، دمشق، ط١، ٢٠٢٢.
١٤- الشفاء، المنطق، ٧ السفسطة، ابن سينا (ت ٤٢٨هـ): أبو علي الحسين بن عبد الله، تحقيق: محمد سليم سالم، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٣٧٣هـ، ١٩٥٤.

١٥- الشفاء، المنطق، ٨ الخطابة، ابن سينا، تحقيق: محمد سليم سالم، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٣٧٣هـ، ١٩٥٤.

١٦- الشمسية في القواعد المنطقية، نجم الدين القزويني (ت ٦٧٥هـ): أبو الحسن بن عمر، تقديم وتحليل وتعليق وتحقيق: مهدي فضل الله، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط١، ١٩٩٨.

١٧- العفو والاعتذار، الرقّام (القرن الرابع هـ): أبو الحسن محمد بن عمران البصري، تحقيق: عبد القدوس أبو صالح، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٩٨١.

١٨- العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي (ت ٣٢٨هـ): أبو عمر أحمد بن محمد، تحقيق: أحمد أمين، وأحمد الزين، وإبراهيم الأبياري، لجنة التأليف والمراجعة والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٩.

١٩- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، حققه وفصله وعلق عليه: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، سوريا، ط٥، ١٩٨١.

٢٠- عيون الأخبار، ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٦.

٢١- الفرج بعد الشدّة، التنوخي (ت ٣٨٤هـ): أبو علي المحسن بن علي، تحقيق: عبود الشالجي، دار صادر، بيروت، ١٩٧٨.

٢٢- فن الشعر من كتاب الشفاء، ابن سينا، ملحق بكتاب: فن الشعر، أرسطوطاليس (ت ٣٢٢ ق.م)، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية.

٢٣- في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط٥، ٢٠١٤.

٢٤- الكليات، الكَفَوِي (ت ١٠٩٤هـ): أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٩٨.

٢٥- لطف التدبير، الخطيب الإسكافي (ت ٤٢١هـ): أبو عبد الله محمد بن عبد الله، تحقيق: أحمد عبد الباقي، مكتبة المثنى، بغداد، مكتبة الخانجي، مصر، ١٩٦٤.

٢٦- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير (ت ٦٣٧هـ): أبو الفتح نصر الله بن محمد، قدّمه وعلّق عليه: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة، مصر.

٢٧- مشكلات الحجاج بالإيطوس من البلاغة إلى تحليل الخطاب، دومينيك مانغينو، ضمن: بلاغة الحجاج بالإيطوس والباطوس، بحوث وترجمات: حسن المودن، كنوز المعرفة، عمّان، ط١، ٢٠٢٢.

٢٨- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم (ت ٦٨٤هـ): أبو الحسن بن محمد القرطاجني، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الكتب الشرقية.

٢٩- النجاة في المنطق والإلهيّات، ابن سينا، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢.

٣٠- نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري (ت ٧٣٢هـ): شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مصر.

ثانيا، المجلات:

٣١- الآليات الحجاجية في نقائض جرير والفرزدق من خلال نقيضتيهما (سم ناقع) و(إن الذي سمك السماء)"، مكلي شامة، مجلة الخطاب، جامعة مولود معمري، الجزائر، عدد ٤، جانفي ٢٠٠٩..

References

books:

1. 'akhbar al'adhkia'i, aibn aljawzi (t 597h): 'abu alfaraj eabd alrahman bin eulay, einayat: basaam aljabi, dar aibn hazma, birut, 2003.
2. al'alfaz almustaemalat fi almantiqa, 'abu nasr alfarabi (t 339hi): muhamad bin muhamad, haqaqah waqadam lah waealaq ealayhi: muhsin mahdi, dar almashriqa, almatbaeat alkathulikiati, bayrut, ta2, 1986m.
3. al'iimbiraturiat alkhatabiatu, shayim birliman, tarjamatu: alhusayn binuhashimi, dar alkitaab aljadidi, libya, ta1, 2022.
4. tarikh alrusul walmuluki, altabarii (t310h): 'abu jaefar muhamad bin jrir, tahqiqu: muhamad 'abu alfadl 'iibrahim, dar almaearifi, masr, ta2, 1976.
5. altaerifati, alsayid alsharif aljirjani, tabea: mustafaa 'afandi fahmi alkatbi, almatbaeat alhumaydiat almisriatu, 1904.
6. jamie albayan ean tawil ay alquran, altabri, tahqiqu: d eabd allah bin eabd almuhsin alturki, bialtaeawun mae markaz albuhuth waldirasat al'iislamiat bidar hijar, dar hajr liltibaeat walnashri, masr, ta1, 2001.
7. alkhataabatu, 'abu nasr alfarabi, tahqiq wataeliqu: muhamad salim salima, alhayyat almisriat aleamat lilkitabi, matbaeat dar alkutub, 1976.
8. dirasat manhajiat fi eilm albadiei, alshahaat muhamad 'abu stit, dar khafajiun liltibaeat walnashri, ta1, 1994.
9. risalat aladab fi adab albahth walmunazaratu, muhamad muhi aldiyn eabd alhamayd (t1393hi), almaktabat alhashimiati, bayrut, 2015.
10. alsiyrat alnabawiatu, aibn hisham (t213h): 'abu muhamad eabd almalik bin hisham bin 'ayuwb alhimyri almueafiri, tahqiqu: mustafaa alsaqaa, wa'iibrahim al'iibyari, waeabd alhafiz alshalabi, maktabat wamatbaeat mustafaa albabi alhalabi wa'awladuhu, masr, ta2, 1955.
11. sharah al'iimam alsaed altaftizani ealaa alshamsiati, alttaftazany (t792hi): saed aldiyn maseud bn eumr, tahqiqa: jad allah basaam salih, dar alnuwr almubini, emman, 2011.

12. sharh alwariqat fi almantiqa, abn alnafis (t 687hi): eala' aldiyn eali bin 'abi alhazm aldimashqi, haqaqah wellq ealayhi: eamaar talbi, wafarid zidani, wafuad milit, dar algharb al'iislami, tunis, ta1, 2009.
13. sharh miftah aleulumi, alttaftazany, tahqiqu: eujaj eawdat barghash, dar altaqwaa, dimashqa, ta1, 2022.
14. alshafa'i, almantiqa, 7 alsafsatatu, aibn sina (t 428h): 'abu eali alhusayn bin eabd allah, tahqiqu: muhamad salim salim, almatbaeat al'amiriatu, alqahirati, , 1954.
15. alshifa'i, almantiqa, 8 alkhataabatu, aibn sina, tahqiqu: muhamad salim salim, almatbaeat al'amiriati, alqahirati, , 1954.
16. alshamsiat fi alqawaeid almantiqiati, najm aldiyn alqizwini (t 675hi): 'abu alhasan bin eumr, taqdim watahlil wataeliq watahqiqu: mahdi fadl allah, almarkaz althaqafiu alearabia, aldaar albayda', bayrut, ta1, 1998.
17. aleafw walaietidhari, alrqqam (alqarn alraabie ha): 'abu alhasan muhamad bin eimran albasari, tahqiqu: eabd alquduws 'abu salih, jamieat al'iimam muhamad bin sueud al'iislamiatu, alrayad, 1981.
18. aleaqd alfaridi, aibn eabd rabih al'andalusiu (t 328hi): 'abu eumar 'ahmad bin muhamad, tahqiqu: 'ahmad 'amin, wa'ahmad alzayn, wa'iibrahim al'abyari, lajnat altaalif walmurajaeat waltarjamat walnashri, alqahirati, 1969.
19. aleumdat fi mahasin alshier wadabih wanaqdihu, abn rashiq alqayrawani, haqaqah wafasalah waealaq ealayhi: muhamad muhyi aldiyn eabd alhamidi, dar aljili, surya, ta5, 1981.
20. euyun al'akhbari, abn qutaybata, 'abu muhamad eabd allh bin muslim aldiynuri, matbaeat dar alkutub almisriati, alqahirati, 1996.
21. alfaraj baed alshddt, altanukhii (t 384h): 'abu eali almuhsin bin eulay, tahqiqu: eabuwd alshaalji, dar sadir, birut, 1978.
22. fanu alshier min kitab alshafa'i, abn sina, mulhaq bikitabi: fani alshiera, 'aristutalis (t 322 qa.mi), tarjamatu: eabd alrahman badwi, maktabat alnahdat almisriati.
23. fi 'usul alhiwar watajdid eilm alkalami, tah eabd alrahman, almarkaz althaqafiu alearabii, aldaar albayda', bayrut, ta5, 2014.

24. alkilyati, alkafawi (t 1094h): 'abu albaqa' 'ayuwb bin musaa alhusayni, tahqiqu: eadnan darwish wamuhamad almasri, muasasat alrisalati, bayrut, ta2, 1998m.
25. lutf altadbir, alkhatib al'iiskafiu (t 421hi): 'abu eabd allah muhamad bin eabd allah, tahqiqu: 'ahmad eabd albaqi, maktabat almuthanaa, baghdadu, maktabat alkhanji, masr, 1964.
26. .
27. almathal alsaayir fi 'adab alkatib walshaaeiri, dia' aldiyn bin al'uthir (t 637hi): 'abu alfath nasr allh bin muhamadi, qddmh wellq ealayhi: 'ahmad alhufi, badawi tabaanata, dar nahdati, masr.
28. mushkilat alhujaaj bial'iitus min albalaghat 'iilaa tahlil alkhatabi, duminik manghinu, damna: balaghat alhujaaj bial'iitus walbatus, buhuth watarjamati: hasan almudun, kunuz almaerifati, emman, ta1, 2022
29. minhaj albulagha' wasiraj al'udaba'i, hazim (t 684ha): 'abu alhasan bin muhamad alqartajini, taqdim watahqiqu: muhamad alhabib abn alkhawjati, dar alkutub alsharqiati.
30. alnajat fi almantiq wal'ilhyat, abn sina, tahqiqu: eabd alrahman eumayrata, dar aljili, birut, 1992.
31. nihayat al'arab fi funun al'adbi, alnuwirii (t 732h): shihab aldiyn 'ahmad bin eabd alwahaabi, wizarat althaqafat wal'iirshad alqawmi, masr.
32. Journal:
33. alaliat alhujajiat fi naqayid jarir walfirzadaq min khilal naqidatayhima (sm naqie) wa('iina aladhi samak alsama'a)", makaliy shamati, majalat alkhatabi, jamieat mawlud maemiri, aljazayar, eadad 4, janfi 2009.